بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

التَّحَدِّي الخَالِد

دراسة شاملة جامعة في إعجاز القرآن الكريم من وجوهه كافة

دراسة تجمع عمق الاستدلال العلمي وأدب التأمل والتحليل

إعداد: محمد عمارة

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾

فهرس المحتويات

المقدمة

الباب الأول: في حقيقة الإعجاز وسر التحدي

١. معنى الإعجاز بين اللغة والاصطلاح
٢. لماذا اختير البيان ميدانًا للتحدي؟
٣. مراتب التحدي في القرآن
٤. أمية النبي صلى الله عليه وسلم دليل قائم بذاته

الباب الثاني: الإعجاز البياني واللغوي

١. خصائص اللفظ القرآني
٢. سر النظم والتناسب
٣. الفاصلة القرآنية وموسيقى النص
٤. نماذج تطبيقية من روائع البيان
٥. الإعجاز القصصي والتصوير الفني
٦. الإعجاز الصوتي في اختيار الحروف ومخارجها
٧. تصوير مشاهد الغيب والآخرة

الباب الثالث: الإعجاز التشريعي والأخلاقي

١. شمول التشريع وتكامله
٢. عالمية الأحكام وصلاحيتها لكل زمان ومكان
٣. التوازن بين حق الروح وحق الجسد

الباب الرابع: الإعجاز الغيبي والتاريخي

١. الإخبار عن أمم غابرة
٢. الإخبار عن المستقبل
٣. الإخبار عما تخفي الصدور
٤. سنن الله الاجتماعية والتاريخية في الأمم

الباب الخامس: الإعجاز العلمي الكوني

١. منهج القرآن في الإشارة إلى آيات الكون
٢. نماذج من الإشارات الكونية
٣. ضوابط ضرورية في التعامل مع هذا الباب

الباب السادس: الإعجاز العددي واللغوي الدقيق

١. ظاهرة التناسب العددي في القرآن
٢. موقف النقد العلمي من هذا الباب

الباب السابع: الإعجاز النفسي والحضاري وإعجاز الحفظ

١. أثر القرآن في النفوس
٢. القرآن وصناعة حضارة
٣. إعجاز الحفظ عبر العصور

الباب الثامن: شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها

١. دعوى أن الإعجاز البياني مسألة ذوقية لا علمية
٢. دعوى محاولات المعارضة عبر التاريخ
٣. دعوى أن كل كتاب قديم يمكن أن يوافقه العلم الحديث مصادفة

الباب التاسع: أبعاد إضافية في الإعجاز

١. الإعجاز في المنهج العقلي والجدلي
٢. القرآن شفاء
٣. شهادات المنصفين من غير المسلمين
٤. معالجة القرآن للإشكاليات الفلسفية الكبرى

الخاتمة: القرآن معجزة العقل والقلب معًا

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيّمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا. والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، واصطُفي ليكون أمينًا على آخر رسالات السماء إلى الأرض.

أما بعد، فإن من أعجب ما يقف عنده الناظر في شأن هذا الدين أن كتابه الخالد لم يزل، منذ أربعة عشر قرنًا، موضع تحدٍّ لم يُرفع، ودعوى لم تُدحض، ونورًا لا يزيده كثرة الناظرين فيه إلا سطوعًا. لقد نزل القرآن على أمة هي أمة البيان بلا منازع، فما فلج لها فارس ولا روم في ميدان الكلام، فاختار الله لها من التحدي أدق ما تُحسنه وأعزّ ما تفخر به: أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا، ولم يكن عجزهم عن قلة حيلة، بل عن حسرة من يرى الغاية ولا يبلغها.

وقد تعاقب على الكتابة في هذا الباب أعلامٌ من علماء الأمة، رصينون في استدلالهم، محلّقون في بيانهم؛ فغاص بعضهم في أعماق هذا الإعجاز فاستخرج دُرَره وجهًا وجهًا، بمنهج الفقيه المحدّث الذي لا يرسل الدعوى إلا مسنودة بدليلها. وجاء من بعدهم مفكرون محدثون، فنظروا إلى القرآن نظرة الأديب المفكر الذي يقرأ النص كما يقرأ العقل البشري ذاته، فربطوا الإعجاز بحركة التاريخ وسنن النفس والعمران.

وهذا الكتاب محاولة متواضعة للجمع بين هذين النهجين: نهج التأصيل والاستدلال، ونهج التأمل والتحليل الأدبي الحديث، سعيًا إلى عرض وجوه إعجاز القرآن الكريم عرضًا شاملًا يطوف على أبوابه المعروفة: البياني، والتشريعي، والغيبي، والعلمي، والعددي، والنفسي والحضاري، وإعجاز حفظه عبر الزمن ثم يعرض لأبرز الشبهات المثارة حول هذا الإعجاز فيدفعها، ويختم بأبعاد إضافية كالمنهج العقلي الجدلي وشفاء القرآن ومعالجته للإشكاليات الفلسفية الكبرى.

وليس الغرض من هذا العرض أن نحمّل النص ما لا يحتمل، أو أن نتكلف له من وجوه الإعجاز ما لم يقصده، فذلك مسلك حذّر منه المحققون من قبلُ ومن بعد؛ إنما الغرض أن نقف أمام هذا الكتاب وقفة المتأمل المنصف، الذي يزنه بميزان العقل والذوق واللغة والتاريخ، فلا يجد له في كلام البشر نظيرًا.

فإلى الله نرفع الدعاء أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، نافعًا لمن قرأه، وأن يهدي به قلوبًا حادت عن الطريق، وأن يزيد به إيمان من آمن.

الباب الأول

في حقيقة الإعجاز وسر التحدي

الفصل الأول: معنى الإعجاز بين اللغة والاصطلاح

الإعجاز في اللغة مصدر من «أعجز»، أي أعيا وجعل غيره عاجزًا عن مجاراته أو مقاومته. والعجز في أصله ضد القدرة، فإذا قيل: أعجزه الأمر، فمعناه أنه بلغ به حدًّا لا يطيق معه فعلًا ولا مثالًا. أما في اصطلاح علماء البيان، فالإعجاز: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، ظاهر على يد مدّعي النبوة تصديقًا له فيما ادعاه.

وقد اجتمعت في القرآن هذه الشروط كلها اجتماعًا لم يتفق لغيره من دلائل النبوات: فهو خارق للعادة لأنه كلام لا يشبه كلام البشر لا في نظمه ولا في تأثيره؛ وهو مقرون بالتحدي الصريح المتكرر في آيات محكمات؛ وهو سالم من المعارضة رغم توافر دواعيها من الحسد والعداوة وسعة الفصاحة عند خصومه؛ وهو ظاهر على يد رجل أمّي لم يُعرف عنه قبل ذلك اشتغال بالشعر أو الخطابة، فكان في ذلك من الدلالة ما لا يخفى.

وهنا يحسن أن نفرّق -كما فرّق المحققون- بين «الإعجاز» بوصفه حقيقة قائمة في ذات القرآن، و«علم إعجاز القرآن» بوصفه جهدًا بشريًّا يحاول الكشف عن أوجه تلك الحقيقة. فالأول ثابت لا يتغير، والثاني قابل للزيادة والنقصان بحسب سعة العلم وعمق النظر؛ ولذلك ازدادت وجوه الإعجاز المكتشفة على مر العصور، دون أن يكون في ذلك دليل على نقص سابق، بل هو من قبيل تجدد وجوه الإدراك لا تجدد وجوه الإعجاز نفسه.

الفصل الثاني: لماذا اختير البيان ميدانًا للتحدي؟

من حكمة الله البالغة أن جعل معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه؛ فموسى عليه السلام بُعث في قوم برعوا في السحر، فكانت آيته العصا التي تلقف ما يأفكون؛ وعيسى عليه السلام بُعث في قوم برعوا في الطب، فكانت آيته إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص؛ ومحمد صلى الله عليه وسلم بُعث في أمة لم تكن لها من مفاخرها كمفخرة اللسان، فكانت معجزته الخالدة كلامًا يتحدى به أرباب الكلام في عقر دارهم.

وفي هذا سرٌّ بديع لطالما وقف عنده أهل التأمل: أن الله لم يجعل معجزة خاتم الأنبياء أمرًا حسيًّا ينقضي بانقضاء حدوثه، كالعصا واليد، بل جعلها كلامًا باقيًا يتجدد إعجازه كلما تُلي، وتتجدد قراءته على كل لسان، فتظل المعجزة حاضرة بين يدي كل جيل لا تحتاج إلى نقل الشهود ولا إلى تصديق الوسائط، بل هي بذاتها حجة قائمة إلى قيام الساعة.

وهذا -فيما يرى بعض المحدثين- هو الفرق الجوهري بين معجزة خالدة ومعجزة تاريخية: فمعجزات الأنبياء السابقين تناقلتها الأخبار فصارت موضع تصديق بالنقل، أما معجزة القرآن فموضع تصديق بالمعاينة المباشرة، إذ يكفي أن يُقرأ ليُختبر، وأن يُتحدى به من شاء في كل عصر، فتتجدد شهادة الإعجاز بتجدد القراء والمتحدِّين.

الفصل الثالث: مراتب التحدي في القرآن

لم يكن التحدي القرآني صرخة واحدة، بل تدرّج تدرجًا يكشف عن ثقة العالم بصدق دعواه: فبدأ بتحدي الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن كله ثم نزل درجة فطلب عشر سور مفتريات ثم نزل درجة أخرى فاكتفى بسورة واحدة، وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات لا يتجاوز عدد كلماتها عشر كلمات.

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»

وهذا التدرج -من حيث دلالته المنطقية- تحدٍّ من أعلى الممكن إلى أدناه، وهو أسلوب من أساليب البرهان العقلي يقول: إن عجزتم عن الكثير فحسبكم القليل؛ فإذا عجز الخصم حتى عن أيسر المطلوب، كان عجزه عن أصعبه من باب أولى. ولم يكتف القرآن بطلب المِثل شكلًا، بل صرّح بأن هذا المِثل مُتاح الشرط ممكن الوسيلة: فليس المطلوب معجزة خارقة، بل كلام من جنس كلامهم، بحروفهم وألفاظهم ولغتهم، وهذا ما يزيد التحدي حدة، إذ لم يُطلب منهم المستحيل عقلًا، بل المستحيل عادةً وواقعًا.

وقد ظل هذا التحدي قائمًا أربعة عشر قرنًا لم يُرفع، ولم يقيِّد بزمان أو مكان، بل هو تحدٍّ للإنسانية جمعاء في كل عصر بلغته من التقدم اللغوي والفكري ما بلغته. وهذا في ذاته من أعجب الظواهر التي لا نجد لها نظيرًا في تاريخ الفكر البشري: أن يقف كتاب واحد أمام كل عقول الأرض قرونًا متطاولة، رافعًا راية التحدي، ولا يجرؤ منصف على ادعاء أنه بلغ مبلغه.

الفصل الرابع: أمية النبي صلى الله عليه وسلم دليل قائم بذاته

من الحقائق التاريخية المقررة التي لم يخالف فيها حتى ألـد خصـومه أن النبي صلى الله عليه وسلم نشأ أميًّا، لم يتعلم القراءة ولا الكتابـة، ولم يجلس إلى معلم أو حلقة علم، ولم يُعرف عنه رحلة في طلب العلوم كما عُرف عن غيره من مشاهير الفصحاء والحكماء. وهذه الأميـة لم تكن أمـرًا خافيًـا يمكن التشكيك فيه، بل كانت واقعًا معروفًا لقومه الذين عاشوا معه أربعين سنة قبل البعثة.

«وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»

والقرآن نفسه يستشهد بهذه الحقيقة كدليل مستقل قائم بذاته: فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ويكتب، لتطرّق إلى دعوى الوحي احتمال أنه استقى معارفه من كتب سابقة أو مصادر مكتوبة، أما وقد انتفى هذا الاحتمـال بحكم واقع حاله، فإن مجيئه بكلام يفوق فصاحة أربـاب البيـان، ويحـوي تشـريعًا محكمًا، وأخبارًا عن الغيب، وحقائق كونية دقيقة، يصبح أمرًا لا يفسِّر إلا بمصدر خارج عن طاقة البشر المعتادة.

وهذا الدليل، على بساطته، من أقوى الأدلة العقلية لأنه يقطع الاحتمال من أصله لا من نتيجته؛ فحتى لو افترض مفترض جدلًا أن رجلًا متعلمًا واسع الاطلاع يمكن أن يستخرج هذا الكم من المعارف المتنوعة من مصادر متفرقة -وهـو افتراض بعيد أصلًا- فإن الأمية المؤكدة تاريخيًّا تُسقط هذا الاحتمال بالكلية، ولا تترك أمام الباحث المنصف إلا تفسيرًا واحدًا يتسق مع الواقع.

الباب الثاني

الإعجاز البياني واللغوي

الفصل الأول: خصائص اللفظ القرآني

إذا تأمل الناظر ألفاظ القرآن وجد كل لفظة فيها وقد اختيرت من بين أخواتها المترادفة اختيارًا دقيقًا، بحيث لو استُبدلت بغيرها مما يقاربها في المعنى لاختل الجرس أو المعنى أو كلاهما. وهذه الظاهرة -التي سماها العلماء «التناسب اللفظي»- تتجلى في اختيار القرآن بين الألفاظ المتقاربة بحسب مقام الكلام: فتراه يستخدم «الخشية» حيث يراد خوف مقرون بعلم وتعظيم، و«الخوف» حيث يراد الفزع من أمر متوقع، ويستخدم «الظن» حيث يراد الرجحان، و«اليقين» حيث يراد القطع، ولا يقع في هذا خلط ولا اضطراب على امتداد الكتاب كله.

> «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»

ومن وجوه هذه الدقة ما يُعرف بـ«مراعاة السياق»، وهي أن اللفظ الواحد يتلوّن معناه بحسب موقعه، فلا يُفهم بمعزل عن سياقه، ومع ذلك لا يحدث في القرآن تعارض بين المعنى السياقي والمعنى المعجمي، بل يتكاملان تكاملًا يزيد النص ثراءً لا غموضًا. وقد أفرد العلماء لهذا الباب مصنفات مستقلة، كـ«الوجوه والنظائر»، تتبعوا فيها معاني اللفظ الواحد في مواضعه المختلفة، فخرجوا بيقين أن وراء هذا الاختيار عقلًا محيطًا لا يتفق مثله لبشر يعمل بالسليقة أو بالتكلف.

وفي هذا يُقال -ممن نظر إلى القرآن نظرة الأديب الباحث عن سر الإبداع-: إن عظمة الأسلوب لا تُقاس بكثرة الزخرف، بل بدقة الوضع؛ وهذه الدقة هي عينها ما يميز الكلام المعجز من الكلام المصنوع، إذ الصنعة تتكلف الزينة وتُخفي وراءها ضعف الأصل، أما البيان القرآني فيزداد نصاعة كلما جُرّد من كل حلية زائدة، لأن حسنه في صميم بنائه لا في زخرفه الخارجي.

الفصل الثاني: سر النظم والتناسب

النظم القرآني هو ذلك الترتيب العجيب الذي تتآلف فيه الحروف مع الحروف، والكلمات مع الكلمات، والجمل مع الجمل، تآلفًا يُحدث في النفس أثرًا لا يُحدثه غيره من الكلام وإن اتفق معه في المعنى والمفردات. وقد أدرك علماء البلاغة، وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني، أن سر الإعجاز ليس في الألفاظ المفردة ولا في المعاني المجردة، بل في «النظم»، أي في طريقة تعليق بعضها ببعض بحسب مقتضى الحال ومراعاة النحو الدقيق للمعاني.

ومن آيات هذا النظم أن القرآن يستطيع أن يعرض القصة الواحدة في سور متعددة، فيبرز في كل موضع جانبًا يناسب سياق السورة ومقصدها، دون أن يقع تكرار مُمل أو تعارض بين الروايات؛ فقصة موسى مع فرعون تتكرر في القرآن أكثر من عشرين مرة، وفي كل مرة تُساق بأسلوب جديد يخدم غرضًا بلاغيًا محددًا، حتى يخيل إلى القارئ أنه أمام قصة جديدة في كل مرة، مع أن الوقائع واحدة.

وهذا التناسب لا يقف عند حدود القصة الواحدة، بل يتجاوزه إلى تناسب السورة كلها؛ فقد لاحظ الدارسون أن مقصد كل سورة -وهو ما يُسمى «المحور الموضوعي»- يتردد صداه في مطلعها وختامها وفي ثنايا آياتها، حتى غدت كل سورة بناءً متكاملًا له وحدته العضوية لا مجموعة آيات متناثرة كما قد يُخيَّل لأول وهلة. وهذا النوع من الإحكام الهندسي في نص طويل نزل منجّمًا على مدى ثلاث وعشرين سنة، في أحوال مختلفة ومناسبات متفرقة، ليس من طبيعة الكلام البشري العفوي في شيء.

الفصل الثالث: الفاصلة القرآنية وموسيقى النص

الفاصلة في القرآن هي آخر كلمة في الآية، وهي تقابل القافية في الشعر والسجعة في النثر، غير أنها تفارقهما فرقًا جوهريًا: فالقافية والسجعة يُطلَبان لذاتهما فيتكلف لهما الشاعر والكاتب أحيانًا التضحية بالمعنى إرضاءً للجرس، أما الفاصلة القرآنية فهي تابعة للمعنى لا سابقة عليه، جزء من الدلالة لا زينة زائدة عليها. فحين يقول تعالى في سياق العلم: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، وفي سياق الرحمة: «إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا»، وفي سياق القدرة: «إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، فإن كل فاصلة تحمل من المعنى ما يوافق مقتضى السياق توافقًا لا يتحقق بالمصادفة على امتداد الكتاب كله.

ولهذه الفواصل من الناحية الصوتية إيقاع خاص يهزّ النفس هزًّا لا تبلغه موسيقى الشعر مع التزامها بحر واحد وقافية واحدة، ولا نثر السجع مع ما فيه من

تكلف وتصنع بيّن. وقد شهد بهذا الإيقاع حتى ألد أعداء الدعوة؛ فهذا الوليد بن المغيرة، وهو أحد فرسان البيان في قريش، حين سُئل عن القرآن، لم يملك إلا أن يصف له حلاوة في قوله وطلاوة في أسلوبه لا تُشبه كلام البشر، فآثر أن يتهم صاحبه بالسحر على أن يجاريه بمثله، وذلك اعتراف ضمني ببلوغه حدًّا لا يُطاق مجاراته.

الفصل الرابع: نماذج تطبيقية من روائع البيان

يكفي الناظر أن يقف عند آية واحدة ليدرك كثافة الدلالة في التعبير القرآني؛ فآية الكرسي -وهي أعظم آية في القرآن كما ثبت في الحديث- تجمع في سطور معدودة عقيدة التوحيد كاملة: قيّوميته سبحانه، وإحاطة علمه، وشمول ملكه، وعظمة قدرته، دون أن يعتري النص حشو أو تكرار، بل تنساب المعاني انسيابًا متصاعدًا من صفة إلى صفة حتى تختم بأعظمها.

«اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»

وفي المقابل، تقف سورة الإخلاص -وهي ثلاث عشرة كلمة فقط- شاهدة على قدرة القرآن على تكثيف أعقد المسائل العقدية، وهي مسألة التوحيد ونفي الشبيه، في أوجز عبارة وأدقها، حتى عادلت -كما ورد في الحديث الصحيح- ثلث القرآن.

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ»

وفي قصة يوسف عليه السلام يتجلى الإعجاز القصصي: بناء درامي متكامل، وتصوير نفسي دقيق لأطراف القصة جميعًا -يوسف، وإخوته، وامرأة العزيز، ويعقوب- في مئة وإحدى عشرة آية فقط، دون أن يفوت السرد شاردة ولا واردة من عناصر القصة الفنية.

هذه النماذج -وهي غيض من فيض- تكشف أن الإعجاز البياني ليس دعوى مجردة، بل حقيقة يمكن اختبارها آية آية، وسورة سورة، وهذا هو الفارق الجوهري بينه وبين كثير من دعاوى الإعجاز الأدبي في تراث الأمم، إذ يظل قابلًا للفحص والمراجعة في كل جيل، ولا يزداد بمرور الزمن إلا رسوخًا.

الفصل الخامس: الإعجاز القصصي والتصوير الفني

للقصة في القرآن وظيفة تختلف عن وظيفتها في الأدب البشري؛ فهي ليست غاية في ذاتها للتسلية أو الإمتاع، وإنما وسيلة للعبرة والهداية، ومع ذلك جاءت بفن قصصي بالغ الإحكام لم يفقد شيئًا من جمال السرد وهو يؤدي غرضه التربوي. فالقرآن يختار من أحداث القصة ما يخدم المقصد، ويطوي ما لا يخدمه، فلا نجد فيه استطرادًا لا داعي له، ولا حشوًا يُقصد به مجرد الإطالة، بل كل مشهد مرسوم بالقدر الذي يحقق أثره النفسي والفكري بأقل الألفاظ وأبلغها.

ومن آيات هذا الفن أن القرآن يستخدم أسلوب «الحذف» و«الإجمال ثم التفصيل» بحيث يترك للمتلقي مساحة يشارك فيها في بناء الصورة الذهنية، كما في قصة أصحاب الكهف حين يوجز الحديث عن عدتهم ويكل علمها إلى الله، أو في قصة موسى مع الخضر حين يُبنى الحوار كله على أسئلة تتصاعد فيها الدهشة والانفعال حتى يبلغ ذروته في المفارقة العقلية بين ظاهر الأفعال وباطن حكمتها. وهذا التصوير الفني يخاطب في الإنسان قدرته على التخيل والانفعال لا عقله المجرد فحسب، فيرسخ المعنى في الوجدان كما يرسخه في الفكر.

ومن أعجب مظاهر هذا التصوير القصصي أنه يجمع بين الواقعية والرمزية دون أن يفقد أحدهما لصالح الآخر؛ فقصص القرآن أحداث تاريخية وقعت بالفعل، وليست أساطير رمزية مجردة كما في كثير من التراث الإنساني، ومع ذلك تحمل من الدلالات الرمزية والعبر الإنسانية العامة ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، بحيث يجد فيها المستمع اليوم نفسه وتجربته كما وجدها من عاصر نزولها أول مرة.

الفصل السادس: الإعجاز الصوتي في اختيار الحروف ومخارجها

لاحظ الباحثون في الصوتيات القرآنية ترابطًا لافتًا بين جرس الحرف ومعناه في سياقه؛ فتتكاثف الحروف المجهورة الشديدة -كالقاف والطاء والدال- في مواضع القوة والعذاب والزجر، بينما تتكاثف الحروف الهامسة الرخوة -كالسين والهاء والفاء- في مواضع السكينة والرحمة واللين، حتى يكاد جرس اللفظ يرسم صورة معناه قبل أن يصل السامع إلى فهم دلالته.

فآيات العذاب في سورتي القارعة والحاقة تعتمد على مقاطع صوتية قوية متلاحقة، متقاربة المخارج شديدة الوقع، تحاكي بجرسها هول الحدث الموصوف؛ بينما تعتمد آيات الرحمة، كآية الكرسي وآيات سورة الرحمن، على

مقاطع أكثر انسيابًا وامتدادًا، توحي بالسكينة والطمأنينة قبل أن يدرك العقل معناها تفصيلًا.

وهذا التناغم بين الصوت والمعنى ظاهرة يصعب أن تصدر عن قصد بشري واعٍ مطّرد عبر نص طويل متصل نزل مفرقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة؛ ذلك أن تحقيقها يتطلب حساسية صوتية دقيقة ثابتة على امتداد الكتاب كله لا في مقطع عارض أو بيت شعري واحد كما قد يحدث أحيانًا عرضًا في الكلام البشري دون قصد ممتد.

الفصل السابع: تصوير مشاهد الغيب والآخرة

من أعجب أبواب البيان القرآني قدرته على تصوير عوالم غيبية محضة - الجنة والنار ويوم القيامة- بصور حسية حية تخاطب الخيال والحواس، مع أنها تصف أمورًا لم يرها أحد من البشر ولم يألفها الذهن الإنساني من قبل، فلا يجد الواصف عادة سبيلًا لوصف ما لم يُشاهد إلا بالتعميم المجرد أو بالاستعارة البعيدة.

فمشهد النفخ في الصور وتشقق السماء وتطاير الجبال كالعهن المنفوش في سور كالتكوير والانفطار والقارعة، مصوِّر بحركة درامية متلاحقة تنقل السامع من مشهد إلى مشهد في إيقاع متسارع، حتى يكاد يعيش اللحظة بكل حواسه رغم أن الموصوف غيب محض لم يقع بعد.

«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ»

ووصف نعيم الجنة بتفاصيله الحسية -الفرش والظل والأنهار والثمار الدانية- يقرّب المعنى الغيبي إلى الأذهان تقريبًا يستطيع كل إنسان أن يتخيله بحسب مألوفه.

والدقة البيانية هنا أن هذا التقريب الحسي لم يقع في تجسيم مخل يشبّه الغيب بالمحسوس تشبيهًا حرفيًّا، ولا في تجريد بارد يُفرغ الوصف من كل أثر وجداني؛ بل جاء متوازنًا بين الأمرين، يمنح القارئ صورة ذهنية حية تحرّك القلب والخيال، مع بقاء المعنى الغيبي في حقيقته منزّهًا عن إحاطة العقل البشري الكاملة به.

الباب الثالث

الإعجاز التشريعي والأخلاقي

الفصل الأول: شمول التشريع وتكامله

من أعجب ما في القرآن أنه، وهو كتاب هداية وعقيدة في المقام الأول، لم يُغفل جانبًا من جوانب حياة الإنسان إلا أرسى له أصلًا تشريعيًّا يُبنى عليه: من العبادة إلى المعاملة، ومن الأسرة إلى الدولة، ومن السلم إلى الحرب، ومن المال إلى الميراث. ولم يأتِ هذا التشريع مبعثرًا مرتجلًا، بل جاء -على تدرجه في النزول بحسب سنة التدرج التربوي- متكاملًا في مقاصده، متسقًا في أصوله، بحيث استطاع فقهاء الأمة أن يستنبطوا منه على مدى قرون علمًا واسعًا هو «الفقه الإسلامي»، دون أن ينفد معينه.

> «مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ»

ولعل أعجب ما في هذا الشمول أنه جاء من رجل أُمّي، في مجتمع بدوي قبلي، لم تُعرف فيه أنظمة الدول ولا مدونات القوانين، فإذا بهذا الكتاب يضع من أصول العدالة وحقوق الإنسان وتنظيم الأسرة وقواعد المعاملات المالية ما تحتاج إليه الأمم المتحضرة كلها، وما لا يزال فقهاء القانون المقارن يقفون أمامه إعجابًا حتى في العصر الحديث. ويرى بعض الباحثين في معرض حديثهم عن هذا الجانب أن أعجب ما في هذا التشريع أنه لم يأتِ نظريًّا معزولًا عن واقع التطبيق، بل طُبّق بحذافيره في المدينة، فأنشأ أول دولة بمعناها المؤسسي في جزيرة العرب، وهذا برهان عملي على أن ما جاء به لم يكن حلمًا مثاليًّا بل نظامًا قابلًا للحياة.

الفصل الثاني: عالمية الأحكام وصلاحيتها لكل زمان ومكان

من خصائص التشريع القرآني أنه جمع بين ثبات الأصول ومرونة الفروع، فجعل من الكليات الثابتة -كتحريم الظلم، ووجوب العدل، وحفظ الضرورات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال- أصولًا لا تتبدل بتبدل الزمان، وترك من التفصيلات ما يقبل الاجتهاد والتكييف بحسب أحوال الناس ومصالحهم المتجددة. وهذا التوازن الدقيق بين الثبات والمرونة هو الذي مكّن

هذا التشريع من مسايرة الحياة البشرية في تحولاتها الهائلة عبر أربعة عشر قرنًا، دون أن يفقد صلاحيته أو يحتاج إلى نسخ جوهري.

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا»

ولو كان هذا التشريع من صنع بشر واحد يعيش في بيئة محدودة، لغلب عليه طابع تلك البيئة وتقلص أثره بتغيرها، كما هو شأن كل القوانين الوضعية التي تُنسخ جيلًا بعد جيل. أما أن يبقى نظام تشريعي محكمًا صالحًا للتطبيق في أقصى بقاع الأرض، عند شعوب مختلفة الأعراق والثقافات والمناخات، فذلك مما يُخرجه عن طوق التأليف البشري المحدود بحدود صاحبه وبيئته وعصره، إلى أفق أرحب هو أفق التشريع الرباني الذي أحاط علمه بما كان وما سيكون.

الفصل الثالث: التوازن بين حق الروح وحق الجسد

يقف القرآن موقفًا فريدًا بين الفلسفات التي أفرطت في تعظيم الروح على حساب الجسد حتى حرّمت طيبات الحياة، والفلسفات التي أفرطت في تعظيم الجسد على حساب الروح حتى أغرقت الإنسان في شهواته؛ فجاء بمنهج وسط يعطي كل ذي حق حقه، فلا هو دين رهبانية يُميت الغرائز الفطرية، ولا هو دعوة إباحية تُطلق لها العنان بلا ضابط، بل هو تشريع يهذّب الغريزة ولا يُلغيها، وينظم الشهوة ولا يُحرّمها، فيجعل من الطعام والشراب والزواج عبادة إذا اقترنت بذكر الله والتزام حدوده.

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا»

وهذا التوازن، كما بيّن علماء هذا الفن في مصنفات كاملة أفردوها لذلك، هو عين الحكمة الإلهية التي راعت في الإنسان طبيعته المزدوجة: طينه المخلوق من الأرض، وروحه المنفوخة من أمر الله، فلم تُهمل أحد الجانبين لحساب الآخر. وهذا -فيما يرى المحدثون أيضًا- هو سر بقاء هذا الدين صالحًا لفطرة الإنسان في كل عصر، إذ لم يصادم فيه فطرته فيُنبذ، ولم يُطلقها بلا ضابط فتفسد به الحياة.

الباب الرابع

الإعجاز الغيبي والتاريخي

الفصل الأول: الإخبار عن أمم غابرة

نطق القرآن بتفصيلات عن أمم خلت وحضارات باد أثرها قبل أن يكتشف علم الآثار الحديث شيئًا من حقيقتها، فجاءت أخباره موافقة لما كشفه العلم فيما بعد موافقة دقيقة تُبطل كل ظن بأن مصدرها الأساطير المتداولة. ومن أعجب هذه الأخبار قصة نجاة بدن فرعون، وقد كان معتقدًا سائدًا حتى أوائل القرن التاسع عشر أن فرعون موسى غرق في اليم ولم يُوجد له أثر، حتى اكتُشفت المومياوات الملكية في وادي الملوك، وتبيّن أن جسده حُفظ كاملًا، مصداقًا لما نزل قبل ذلك الاكتشاف بثلاثة عشر قرنًا.

«فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً»

ومثل ذلك ما ورد في القرآن عن مدين وثمود وقوم لوط وعاد، من تفاصيل دقيقة حول عمرانهم ومساكنهم وأسباب هلاكهم، وقد أكدت الحفريات الأثرية الحديثة في مواضع هذه الأقوام كثيرًا من هذه المعطيات. وليس القصد من هذا الباب أن نُخضع القرآن لتصديق العلم الحديث، فالقرآن أجلّ من أن يحتاج شهادة مخلوق على صدقه، إنما القصد أن هذا التوافق -وهو خبر عن أمم درست آثارها ودُفنت أخبارها لا يمكن أن يصدر عن رجل أُمّي عاش في جزيرة العرب، لم يخالط أرباب هذه الحضارات ولا اطّلع على آثارهم المدفونة تحت الرمال والركام.

الفصل الثاني: الإخبار عن المستقبل

من أعجب وجوه الإخبار الغيبي في القرآن نبوءته عن انتصار الروم بعد هزيمتهم أمام الفرس، وقد نزلت هذه الآيات في وقت بلغت فيه الدولة الفارسية أوج انتصاراتها، حتى راهن كفار قريش المسلمين على تكذيب هذه النبوءة، فتحقق ما أخبر به القرآن خلال المدة المحددة، فانتصر الروم على الفرس، وأسلم كثير ممن كانوا راهنوا على تكذيبها.

«الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ»

ومن هذا الباب أيضًا وعد الله بحفظ هذا الكتاب من التحريف، وهو وعد تحقق عبر أربعة عشر قرنًا لم تمسّه يد التحريف رغم توافر دواعيه من أعداء كثر عبر التاريخ، على خلاف كل الكتب السماوية السابقة التي اعترى نصوصها ما اعتراها من تحريف وتبديل وضياع للأصول. وهذا النوع من الإخبار -كما بيّن العلماء في غير موضع- من أقوى أدلة النبوة، إذ لا سبيل لأحد أن يجزم بأمر مستقبل غير محقق الأسباب في عالم الشهادة إلا أن يكون مصدر خبره الوحي.

الفصل الثالث: الإخبار عما تخفي الصدور

من وجوه الإعجاز الدقيقة أن القرآن كشف مرارًا عما يخفيه المنافقون في صدورهم من كيد ونفاق، وفضح مؤامرات لم يطّلع عليها أحد من الناس، حتى غدا بعض الصحابة يخشى أن يُفضح سرّه بآية تنزل.

«أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ»

وهذا النوع من كشف بواطن النفوس كان له أثر تربوي عظيم في تكوين الشخصية الإسلامية الأولى، إذ نشأ جيل الصحابة وهو يعلم أن ثمة رقيبًا لا تخفى عليه خافية، فتهذبت سرائرهم بقدر ما تهذبت ظواهرهم.

وفي هذا يلتقي البعد الغيبي بالبعد النفسي التربوي: فالقرآن حين يكشف خفايا النفوس لا يفعل ذلك تشهيرًا، بل تزكيةً وتطهيرًا، تمامًا كما يفعل الطبيب حين يكشف الداء الخفي ليصف له الدواء الناجع. وهذا -كما يُلحظ في تحليل الشخصية الإسلامية الأولى- هو أحد أسرار التحول الأخلاقي السريع الذي شهدته الجزيرة العربية، إذ لم يكن التغيير سلوكيًّا سطحيًّا، بل كان تغييرًا من الجذور، بلغ أعماق النفوس التي وجدت نفسها مكشوفة أمام كتاب لا تخفى عليه خافية.

الفصل الرابع: سنن الله الاجتماعية والتاريخية في الأمم

لم يكتفِ القرآن بالإخبار عن أحداث بعينها ماضية أو مستقبلة، بل قرر إلى جانب ذلك قوانين عامة ثابتة لنهوض الأمم وسقوطها، سمّاها القرآن «سنن الله»، وهي قوانين لا تحابي أمة على أمة ولا تراعي نسبًا أو دينًا، وإنما تجري وَفق أسبابها المطّردة في كل زمان.

«فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا»

فمن هذه السنن سنة الاستبدال: أن الأمة إذا تولّت عن الحق استُبدلت بغيرها ممن يقوم بأمره؛ وسنة الإمهال ثم الأخذ: أن الله يُملي للظالم فترة ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ وسنة العاقبة: أن الفساد والظلم مآلهما الهلاك مهما طال الأمد، والصلاح والعدل مآلهما البقاء والتمكين. وهذه السنن تربط الأسباب المادية -كالظلم والترف والفساد والتفرق- بالنتائج التاريخية ربطًا موضوعيًّا مطّردًا، بطريقة تشبه ما توصل إليه علم الاجتماع الحديث في دراسة نهوض الحضارات وسقوطها بعد قرون طويلة من نزول القرآن.

والفارق الجوهري بين هذه السنن القرآنية وملاحظات المؤرخين والباحثين الاجتماعيين المتأخرين، أن هذه الأخيرة استُخلصت من دراسة وقائع حدثت بالفعل ثم عُمِّمت بعدها، أما سنن القرآن فقد قُرّرت كقوانين عامة قبل وقوع كثير من مصاديقها عبر التاريخ اللاحق للنزول، وصح انطباقها على أمم وحضارات لم تكن قد نشأت بعد وقت نزول الوحي، وهذا يمنحها طابعًا تأسيسيًّا سابقًا للتجربة لا استخلاصًا لاحقًا منها.

الباب الخامس

الإعجاز العلمي الكوني

الفصل الأول: منهج القرآن في الإشارة إلى آيات الكون

لم ينزل القرآن كتابًا في الفلك أو الأحياء أو الجيولوجيا، وإنما هو كتاب هداية يدعو الناس إلى النظر في الكون استدلالًا على عظمة خالقه. غير أن هذا الاستدلال جاء في مواضع كثيرة على هيئة إشارات دقيقة عن حقائق كونية، لم تكن معروفة لأهل ذلك العصر، ولا يمكن أن تُدرك بالمشاهدة المجردة أو بالمعارف السائدة آنذاك ثم جاء العلم التجريبي الحديث بعد قرون طويلة ليكشف توافقًا لافتًا بين هذه الإشارات وما توصل إليه.

وينبغي أن يُفهم هذا الباب من الإعجاز على أنه «عدم تعارض» و«توافق مذهل» لا على أنه «كتاب علوم تفصيلي»؛ فالقرآن لم يستخدم المصطلح العلمي الحديث، بل استخدم لغة عربية بيانية تخاطب كل العصور، وهذه اللغة حين تُقرأ في ضوء العلم الحديث تكشف عن دقة ما كانت لتُدرك في زمن النزول. وهذا الفارق الدقيق هو الذي ميّز منهج المحققين -قديمًا وحديثًا- عمن تسرّع فأسقط على النص كل نظرية علمية طارئة، وهو خطأ منهجي حذّر منه العلماء الراسخون.

الفصل الثاني: نماذج من الإشارات الكونية

من أشهر هذه الإشارات ما ورد في وصف أطوار الجنين تعاقبًا من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام المكسوة باللحم، وهو وصف مطابق لما كشفه علم الأجنة الحديث من تعاقب دقيق للأطوار، ولفظ «العلقة» وحده يحمل دلالتين علميتين -الشيء المعلّق، والدم المتجمد الشبيه بالعلقة الماصة- تتطابقان مع حال الجنين في هذا الطور تطابقًا لم يكن ممكن الإدراك المجهري في القرن السابع الميلادي.

> «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»

ومن ذلك ما ورد عن الحاجز بين البحرين، وقد أثبت علم الأوقيانوغرافيا وجود مناطق التقاء بين بحار متجاورة تحتفظ فيها كل كتلة مائية بخصائصها من الملوحة والكثافة رغم التقائها، بفعل قوة التوتر السطحي التي تشكل حاجزًا غير مرئي.

«مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ»

ومن ذلك أيضًا وصف الجبال بأنها «أوتاد» تُثبّت الأرض، وهو وصف يتوافق مع ما كشفه علم الجيولوجيا من امتداد جذور الجبال في الأرض بما يشبه الوتد المغروس، بما يسهم في استقرار الصفائح الأرضية.

«وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا»

الفصل الثالث: ضوابط ضرورية في التعامل مع هذا الباب

مع تسليمنا بوجاهة هذا الباب من الإعجاز، فإن الأمانة العلمية تقتضي التنبيه إلى ضوابط أرساها كبار المحققين، درءًا لما وقع فيه بعض المتحمسين من تكلّف وتعسّف. فمن هذه الضوابط ألا يُحمَّل النص القرآني نظرية علمية بعينها حملًا يجعل ثبات الآية رهينًا بثبات تلك النظرية، إذ العلم التجريبي متغير بطبيعته، وقد تُنقض نظرية اليوم غدًا، فلا يجوز أن يُربط كتاب الله الثابت بمتغير من صنع البشر.

ومنها أيضًا ألا يُقحم على الآيات معنى علمي بعيد عن سياقها اللغوي ومقصدها الأصلي إرضاءً لرغبة في إثبات الإعجاز، فذلك تكلف يضر بالقرآن أكثر مما ينفعه. وقد كان هذا هو موقف المحققين من السلف، إذ نبّهوا إلى أن مقصد القرآن الأول هو الهداية لا سرد المعارف الكونية، وأن ما يرد فيه من إشارات كونية إنما هو من قبيل الاستدلال العرَضي لا المقصد الأصلي؛ فإذا التُزم هذا الضابط، بقي هذا الباب من الإعجاز رصينًا لا تشوبه شائبة التكلف.

الباب السادس

الإعجاز العددي واللغوي الدقيق

الفصل الأول: ظاهرة التناسب العددي في القرآن

لاحظ الباحثون في العقود الأخيرة ظواهر عددية لافتة في بنية القرآن اللفظية، من ذلك تساوي عدد ورود بعض الألفاظ المتقابلة في المعنى: فكلمة «الدنيا» وردت في القرآن بقدر ما وردت كلمة «الآخرة»، وكلمة «الملائكة» بقدر ما وردت كلمة «الشياطين»، وكلمة «الحياة» بقدر ما وردت كلمة «الموت»، إلى غير ذلك من عشرات الأمثلة التي رصدها الباحثون في هذا المضمار.

ومن ذلك أيضًا ما لوحظ من علاقة بين عدد ذكر بعض الظواهر الكونية في القرآن ومعطياتها، كعدد مرات ذكر لفظ «يوم» بصيغة المفرد، وعدد مرات ذكر لفظ «شهر». وهذه الملحوظات، وإن كانت لا ترقى في يقينها إلى وجوه الإعجاز البياني والتشريعي الراسخة، فإنها تضيف طبقة أخرى من الدهشة أمام نص لم يكن كاتبه -بحسب المنطق البشري المجرد- ليحصي مثل هذا التناسب الدقيق وهو يتنزل مفرقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة دون كتابة إحصائية مسبقة.

الفصل الثاني: موقف النقد العلمي من هذا الباب

الإنصاف العلمي يقتضي منا أن نتعامل مع هذا الباب بحذر أكبر مما نتعامل به مع سائر أبواب الإعجاز، فقد شاب كثيرًا من هذه الإحصائيات خلاف في طرق العد، كما أن بعض من كتبوا في هذا الباب وقعوا في تكلفات لإثبات فرضياتهم، وهو ما رفضه جمهور العلماء المحققين، بل عدّه بعضهم مدخلًا خطيرًا لأصحاب الأهواء.

ولهذا كان الأسلم منهجيًّا أن يُنظر إلى الملحوظات العددية الموثقة والمنضبطة بوصفها إضافة تُثري الدهشة أمام نص القرآن لا بوصفها ركيزة أساسية يُبنى عليها الاحتجاج للإيمان، فالإيمان بالقرآن قائم على أدلة أرسخ وأثبت من هذا الباب الظني المتشعب. وهذا هو عين المنهج النقدي الذي

انتهجه المحققون قديمًا لا يرفضون الجديد جملة، ولا يقبلونه دون تمحيص، بل يزنونه بميزان العلم والإنصاف.

الباب السابع

الإعجاز النفسي والحضاري وإعجاز الحفظ

الفصل الأول: أثر القرآن في النفوس

من أعجب ما يشهد به التاريخ أثر هذا الكتاب في نفوس سامعيه، وهو أثر لم يتكرر بمثل قوته لكلام آخر عبر التاريخ الإنساني. فهذا عمر بن الخطاب، الفارس الشديد البأس، الذي خرج ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما إن سمع آيات من سورة طه حتى انقلب قلبه، وأسلم في الساعة نفسها، فتحول من ألد أعداء الدعوة إلى أحد أعظم أعمدتها.

بل إن القرآن نفسه أخبر عن تأثيره في مخلوقات أخرى غير الإنس، وهم الجن، إذ استمع نفر منهم فوصفوه بأنه «قرآن عجب». وهذا الأثر النفسي الهائل ليس أثرًا سحريًّا غامضًا، بل هو أثر بيان بلغ من الصدق والجمال والحق مبلغًا يخترق حجب الكبر والعناد، فيصل إلى الفطرة السليمة مباشرة، وذلك سر قوله تعالى:

«لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»

الفصل الثاني: القرآن وصناعة حضارة

في أقل من قرن من نزول أول آية في غار حراء، تحولت جزيرة العرب - وهي أرض متناحرة القبائل، أمّية في غالب أهلها، هامشية في خريطة الحضارات آنذاك- إلى مركز حضارة عالمية امتدت من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، حاملة معها علومًا في الطب والفلك والرياضيات والفقه والأدب أنارت للعالم طريقه في عصور أوروبا المظلمة. وهذا التحول السريع، بحسب التحليل التاريخي لا يمكن تفسيره بعوامل اقتصادية أو عسكرية بحتة، إنما كان الدافع الحقيقي هو ذلك الكتاب الذي أعاد تشكيل وعي الإنسان العربي من الداخل.

«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»

ولم يكن هذا الأثر الحضاري مقصورًا على العرب، بل امتد إلى كل الشعوب التي دخلت في هذا الدين، فوجدت في القرآن ما يخاطب فطرتها بلا تمييز عرقي أو لغوي، وهذا -من الناحية الاجتماعية- ظاهرة فريدة لكتاب واحد أن يجمع أممًا متباينة الألسن والثقافات تحت مظلة واحدة من القيم والتصورات، محافظًا في الوقت نفسه على تنوعها الثقافي.

الفصل الثالث: إعجاز الحفظ عبر العصور

يتفرد القرآن من بين كل الكتب المقدسة والتراثية بأنه وصل إلينا كما نزل حرفًا حرفًا، محفوظًا بسندين متلازمين لم يفترقا: سند الكتابة، إذ دُوّن منذ عهد النبوة على أيدي كتّاب الوحي، وسند الحفظ الشفهي المتواتر، إذ حفظه في كل جيل عشرات الألوف من حفظة القرآن صدرًا عن صدر، بحيث لو اجتمع أهل الأرض على تحريف حرف منه لفضحهم تواتر الحفاظ في أقطار الأرض المختلفة.

وتنوع القراءات القرآنية المتواترة لم يكن اضطرابًا في النص، بل توسعة رحمانية راعت تنوع لهجات العرب عند نزول الوحي، مع بقاء المعنى العام للنص واحدًا لا يتعارض بين القراءات فيه. وقد ظل هذا النص محفوظًا عبر أربعة عشر قرنًا شهدت سقوط ممالك وزوال دول وتغير لغات، بينما ظل هو بمنأى عن التبدل، وهذه بذاتها آية من آيات وعد الله بحفظه.

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»

الباب الثامن

شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها

الفصل الأول: دعوى أن الإعجاز البياني مسألة ذوقية لا علمية

يقول بعض المشككين إن الحكم بإعجاز القرآن البياني حكم ذوقي شخصي لا ينضبط بمعيار علمي، وأن استحسان العرب لفصاحته لا يعدو أن يكون انبهارًا حضاريًّا عابرًا لا دليلًا موضوعيًّا يصح الاحتجاج به.

والجواب أن علم البلاغة العربية نفسه -بأبوابه في المعاني والبيان والبديع- علم مدوَّن له قواعده وضوابطه الدقيقة، وقد نشأ هذا العلم أصلًا من محاولة ضبط وجوه الإعجاز القرآني وتقعيدها لا العكس؛ فليس الحكم بإعجاز القرآن انطباعًا عابرًا، بل نتيجة دراسة ممنهجة استمرت قرونًا، شارك فيها خصوم القرآن من المشركين قبل أن يشارك فيها أنصاره، ولم يستطع أحد منهم -رغم خبرته اللغوية العميقة وعداوته الشديدة- أن يقيم عليه نقضًا علميًّا واحدًا.

كذلك فإن اتفاق أذواق متباينة عبر عصور وأمم مختلفة على تعظيم هذا الأسلوب هو في ذاته مؤشر موضوعي لا ذاتي؛ فالذوق الفردي قد يختلف من شخص لآخر، أما إجماع ممتد عبر أربعة عشر قرنًا على استثناء نص واحد من بين ملايين النصوص العربية، فأمر يستدعي تفسيرًا موضوعيًّا لا مجرد رده بدعوى النسبية الذوقية.

«وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ»

وفي هذا ما يحسم الإشكال من أصله: فالقرآن لم يطلب من الشاكّ أن يسلّم بذوق غيره، بل أحاله إلى اختبار عملي بيده هو، يقيسه بأدواته الخاصة لا بأدوات غيره؛ وهذا هو الفارق بين الدعوى الذوقية المجردة والدعوى القابلة للاختبار الموضوعي.

الفصل الثاني: دعوى محاولات المعارضة عبر التاريخ

يستدل بعض المشككين بمحاولات معارضة القرآن التي ظهرت عبر التاريخ، كمحاولات مسيلمة الكذاب ومن حذا حذوه، على أن التحدي لم يكن مستحيلًا، وإنما كان ممكنًا ولم يشتهر لأسباب سياسية أو اجتماعية.

والجواب أن هذه المحاولات ذاتها أقوى شاهد على استحالة المعارضة لا على إمكانها؛ فالنصوص التي نُسبت إلى هؤلاء ركيكة السبك، مضطربة المعنى، ولم يقبلها حتى أتباعهم المتعصبون على أنها نظير للقرآن، بل بقيت عبر التاريخ نماذج يستشهد بها البلاغيون على الفارق الهائل بين الكلامين. ولو كانت هذه المحاولات معارضة حقيقية لانتشرت انتشار القرآن، ولحفظها الناس كما حفظوه؛ فاندثارها وبقاء القرآن دليل على أنها لم تكن في ميزانه شيئًا يُذكر.

الفصل الثالث: دعوى أن كل كتاب قديم يمكن أن يوافقه العلم الحديث مصادفة

يرى بعض المشككين أن التوافقات بين الإشارات القرآنية والحقائق العلمية الحديثة من قبيل المصادفة، وأن أي نص قديم غامض العبارة يمكن تأويله لاحقًا بما يوافق أي اكتشاف يظهر.

والجواب أن هذا الاعتراض ينهار أمام معيارين: الأول أن الإشارات القرآنية المعنية واضحة العبارة محددة الدلالة لا تحتمل من تعدد التأويل ما يسمح بهذا الطعن، كوصف أطوار الجنين بألفاظ دقيقة متسلسلة لا تقبل القلب أو التبديل؛ والثاني أن هذا الاعتراض لا يُطبِّق بالمعيار نفسه على كتب قديمة أخرى، إذ لم يستطع أحد أن يورد من نص قديم آخر مجموعة موازية من إشارات دقيقة متعددة المجالات -فلكية وجيولوجية وأحيائية- تتوافق مع مكتشفات لاحقة بهذا القدر من التكرار والدقة؛ وهو ما يجعل تفسير الأمر بالمصادفة نفسه بحاجة إلى تفسير احتمالي لم يقدمه أحد من المعترضين.

الباب التاسع

أبعاد إضافية في الإعجاز

الفصل الأول: الإعجاز في المنهج العقلي والجدلي

لم يكتفِ القرآن بمخاطبة الوجدان عبر جمال الأسلوب، بل قدّم إلى جانب ذلك براهين عقلية قطعية على أصول الاعتقاد -التوحيد والبعث والنبوة- تتسم بدقة منطقية لافتة رغم أنها موجهة إلى عامة الناس لا إلى الفلاسفة والمناطقة.

فمن أدق هذه البراهين ما يُعرف بـ«دليل التمانع»، وهو استدلال على استحالة تعدد الآلهة: لو كان في الكون آلهة متعددون لتمانعوا واختلفت إراداتهم ففسد نظام الكون، وإذ نرى الكون منتظمًا لا فساد فيه، دل ذلك على وحدانية المدبِّر.

> «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»

ومن ذلك دليل القياس على القدرة الأولى لإثبات إمكان البعث، وهو أن من خلق الشيء ابتداءً من عدم أقدر على إعادته بعد فنائه، وهو استدلال بسيط في عبارته، عسير النقض في بنيته المنطقية، حتى صاغه علماء الكلام لاحقًا في قوالب فلسفية معقدة أصلها هذه الآية الموجزة.

> «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ»

وتكمن عبقرية هذا المنهج الجدلي القرآني في أنه يخاطب العقل الفطري البسيط بلغة يفهمها كل إنسان، مع بقاء صحته وصلابته المنطقية أمام أدق أنظار المتخصصين في علم الكلام والفلسفة عبر العصور، وهذا الجمع بين البساطة في العرض والمتانة في البرهان مما يصعب أن يتأتى لصانع بشري.

الفصل الثاني: القرآن شفاء

من الأبعاد التي أشار إليها القرآن عن نفسه أنه شفاء، وهو معنى يتجاوز الهداية الفكرية إلى أثر يلامس النفس والقلب مباشرة.

«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»

وهذا الشفاء نوعان: شفاء معنوي من أمراض القلوب كالشك والحيرة والحسد والقلق، يجده كل من صدق في تدبر آياته؛ وشفاء له بعد حسي ثابت بالتجربة النبوية، كما في حديث الصحابي الذي رقى اللديغ بفاتحة الكتاب فبرئ بإذن الله، وهو ما أقرّه النبي صلى الله عليه وسلم وسمّاه رقية شرعية.

وهذا البعد العلاجي فتح على مدى العصور بابًا في العناية بأثر تلاوة القرآن على النفس، وقد بدأت بعض الدراسات الحديثة تلتفت من زاوية علمية بحتة إلى تأثير الاستماع للنصوص ذات الإيقاع المنتظم على الاسترخاء وخفض التوتر، دون أن يعني ذلك اختزال هذا البعد الإيماني في تفسير مادي محض، إذ يبقى جوهر هذا الشفاء غيبيًّا يتلقاه المؤمن بيقين لا يحتاج إلى شاهد تجريبي.

الفصل الثالث: شهادات المنصفين من غير المسلمين

عبر تاريخ الدراسات الاستشراقية، سجّل عدد من الباحثين غير المسلمين - رغم مخالفتهم للمسلمين في مصدر القرآن وعقيدتهم فيه- ملاحظات تعترف ببعض أوجه هذا الإعجاز، وهي شهادة خصمٍ لا صديق، وشهادة الخصم أدلّ من شهادة الصديق.

فالمستشرق الألماني تيودور نولدكه، وهو من أشد الباحثين الغربيين نقدًا لمصدر القرآن، أقرّ في دراسته المعروفة عن تاريخ القرآن بالقيمة الأدبية الرفيعة لأسلوبه وببراعة تأثيره البالغ في مستمعيه الأوائل، مع تمسكه بموقفه المخالف للمسلمين في مصدره. وهذا النموذج يمثل نمطًا متكررًا في الدراسات الاستشراقية: نقد للعقيدة يقترن باعتراف مضطر بالقوة الأدبية والتاريخية للنص، وهو تناقض ملحوظ يكشف أن قوة النص فرضت نفسها حتى على من ينكر مصدره.

وينبغي هنا التنبه إلى وجوب التحقق من نسبة أي قول يُتداول في هذا الباب قبل الاستشهاد به، فقد شاعت على الألسنة عبارات منسوبة زورًا إلى علماء أو مستشرقين غربيين حول القرآن دون سند صحيح، وهذا مسلك ينبغي أن يترفع عنه من يدافع عن كتاب هو الحق في ذاته ولا يحتاج إلى تقوية دعواه بنقل غير موثق.

الفصل الرابع: معالجة القرآن للإشكاليات الفلسفية الكبرى

من الأبعاد التي يغفل عنها كثير ممن يكتبون في الإعجاز أن القرآن عالج إشكاليات فلسفية كبرى ظلت محل جدل عويص في الفكر الإنساني قرونًا طويلة، وقدّم لها أطرًا متوازنة منذ البداية، من أبرزها مشكلة الشر ومسألة الجبر والاختيار.

فمشكلة الشر -وهي التساؤل عن كيفية اجتماع وجود الألم والشر في العالم مع عدل إله قادر رحيم- عالجها القرآن عبر مفهوم الابتلاء وربط الشر الجزئي المُدرَك بخير كلي أوسع قد يغيب عن إدراك الإنسان المحدود، وهو ما تمثله قصة موسى مع الخضر تمثيلًا تربويًّا رائعًا: أفعال ظاهرها الشر -خرق السفينة، وقتل الغلام- كان باطنها خيرًا لم يدركه موسى عليه السلام إلا بعد بيان الحكمة، فضرب القرآن بذلك مثلًا لكل ما يبدو شرًّا في نظر الإنسان القاصر عن إحاطة العلم بعواقب الأمور.

وأما مسألة الجبر والاختيار -وهي التساؤل عن مدى حرية الإنسان في أفعاله في ظل علم الله الشامل وقدرته المطلقة- فقد جمع القرآن فيها بين طرفي المعادلة بدقة نادرة: فأثبت للإنسان مشيئة واختيارًا حقيقيًّا يُسأل عنه ويُحاسَب عليه، وأثبت في الوقت نفسه أن مشيئة الإنسان لا تخرج عن سلطان مشيئة الله الكلية.

«لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»

وقد ظلت هاتان المسألتان موضع جدل فلسفي عويص استمر قرونًا طويلة في الفكر الإنساني، وتفرقت فيهما المذاهب بين إفراط وتفريط -كما انقسم المتكلمون في التراث الإسلامي بين جبرية ومعتزلة، وانقسم أهل الملل الأخرى بين مذاهب مشابهة- بينما قدّم القرآن منذ نزوله إطارًا متوازنًا يحفظ للإنسان مسؤوليته الأخلاقية دون أن ينتقص من كمال الله المطلق، وهو توازن لم تستقر عليه الفلسفات البشرية إلا بعد جدل طويل، وبعضها لم يستقر عليه إلى اليوم.

الخاتمة: القرآن معجزة العقل والقلب معًا

وبعد هذه الجولة بين وجوه الإعجاز القرآني -البياني والتشريعي والغيبي والعلمي والعددي والنفسي والحضاري وإعجاز الحفظ- وبعد الوقوف على أبعاد أخرى كالمنهج العقلي والشفاء ومعالجة الإشكاليات الفلسفية، وبعد الوقوف على أبرز الشبهات المثارة حوله وبيان وهنها، يخرج المتأمل المنصف بيقين لا يتزعزع: أن هذا الكتاب ليس من صنع البشر، وأنه لا يمكن أن يكون كذلك لا لأنه مطلب إيماني مسبق، بل لأن أدلة ذلك قائمة في ذات النص، ماثلة أمام كل ناظر في كل عصر.

لقد اجتمع في هذا الكتاب ما لا يجتمع عادة في كلام واحد: بيان يتحدى فرسان اللغة في عقر دارهم، وتشريع يصلح لكل زمان ومكان، وأخبار عن غيب الماضي والمستقبل تتحقق حرفيًّا، وإشارات كونية تتوافق مع منجزات العلم بعد قرون طويلة، وتناسب لغوي وعددي دقيق يستعصي على الصدفة، وأثر نفسي يخترق أعتى القلوب عنادًا، وقدرة على صناعة حضارة عالمية من عدم، وحفظ معجز صمد أمام كل عوادي الزمن. وكل وجه من هذه الوجوه، لو انفرد وحده، لكفى دليلًا على مصدره الرباني، فكيف وقد اجتمعت كلها في كتاب واحد؟

وليس عجيبًا -بعد هذا كله- أن يبقى التحدي القرآني قائمًا لم يُرفع، وأن تظل دعوته صارخة في كل جيل؛ فالحق إذا استقر في محله، لم يعد بحاجة إلى من يدافع عنه، بل يكفيه أن يُعرض على العقول المنصفة والقلوب الصافية لتشهد له بنفسها.

> «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا»

والحمد لله رب العالمين

قائمة المراجع

للاستزادة في موضوع إعجاز القرآن الكريم، يُنصح بالرجوع إلى المصادر التالية:

١. الباقلاني، أبو بكر: إعجاز القرآن.

٢. الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز.

٣. الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة.

٤. الخطابي، أبو سليمان: بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

٥. الرماني، علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

٦. الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن.

٧. السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن.

٨. الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

٩. دراز، عبدالله: النبأ العظيم.

١٠. قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن.

١١. القطان، مناع: مباحث في علوم القرآن.

١٢. النجار، زغلول: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.